زارها : حمود بن سالم السيابي

إنه «طعم القرفة والجوز الأخضر على شفتي هذه المدينة البوهيمية» كما تحسسه الشاعر التشيكي «بالمي رانتشيف»، وكما يتحسسه كل من يعتزم زيارة براغ عاصمة التشيك . كان الجو حالما ذلك الصباح الهامبورجي يوم انطلقت بنا الفولكسواجن باتجاه الجنوب الشرقي .

براغ

بطعم القرفة والجوز الأخضر

وكانت سماء الشمال الألماني تمطر حتى في الصيف، والعشاق الذين يتكررون أمام سيارتنا يتعثرون في المشي تشغلهم أحضان مظلة واحدة يوشوشونها آهات وحكايات مبعثرة .

وكانت الفولكسواجن المجنونة على «الهاي واي» الأوروبي تنسف وراء زجاجتها هامبورج بأنهارها وبحيراتها وبجعاتها، لتنقلنا إلى الفردوس بسنديانه وصنوبره وصفصافه، والذي يبسط سجاده الأخضر من آخر بجعة متعبة في «أليستر» إلى أحزان نورس يبحث عن وليف في «الراين» في برلين مرورا ب «دريسدن» حيث باعت الأميرة سالمة حليها كبوهيمية شرقية هي الأخرى تعشقت حياة الصعاليك وأحبت لامية العرب للشنفرى وهو يحدثها :

(وأستف ترب الأرض كي لا يُرَى له ... عليَّ

■ فالتافا نهر الكريستال الذي ينهمر على أم المدن الأوروبية

من الطول امرؤٌ متطوِّلُ)

وانتهاء بعاشقين على جسر «تشالرز» يستطعمان القرفة والجوز الأخضر، ويستدعيان ملامح الملك «كارل الرابع» على صفحة نهر «فالتافا» الذي يخترق براغ.

وعبر هذه المسافة الممتدة لخمسمائة كيلومتر من هامبورج إلى عاصمة البوهيميين كان لا بد للخيال أن يسبق الواقع ويرتاد المكان قبله .

وكان لا بد لسوء الظن أن يتعجل النتائج لكل قادم إلى عاصمة البوهيميين بما يعنيه المصطلح من فوضى وعبثية وصعلكة .

ولا بد لسلالات «جان فالجان ومادلين وجافير وأزلما وميريل» وغيرها من شخصيات «فكتور هوجو» في «بؤسائه» الخالدة من أن يخرجوا من صفحات الرواية لينثروا الزمن الأوروبي وشما وضفائر وعقوصا وحشيشا وخمرا، ومن الحتمي أن يتوسد كل هؤلاء الصعاليك ليل براغ عاصمة البوهيميين، ويقهقهون في نهاراتها المفعمة بالحياة .

كانت العيون تسابق السرعة في قراءة لافتات الشوارع بحثا عن براغ وخوفا من أن نضيع في مجاهل القارة العجوز.

ثم لاحت كلمة «براها» فقاربنا الاسم البوهيمي ببراغ، لندخل المدينة وقرص الشمس لا زال يلقي شاله الحريري الأصفر على الأدوار الفوقية للبنايات، ما يعني أن النهار يتسع لساعات أخرى، فنهارات صيف أوروبا طويلة ونحن في السادس من يونيو حيث الشمس ستصحبنا إلى الساعة العاشرة مساء .

كان «النافيجيتر» يشعرنا بالوصول، وعيوننا ما تزال تتلفت في الجهات الأربع وهي تبحث بين صف من البيوت القوطية الطراز عن لافتة فندق «داون تاون» إلى أن تبيناها بلون الجوز المتآلف وجدران المتحف الوطني المجاور لفندقنا.

كان الفندق من اقتراحات «البوكنج دوت كوم» ولم يخيبنا الاختيار، وكان الموقع مثاليا إذ يزاحم المتحف كتفا بكتف، وأمسا بأمس، ورائحة برائحة، ويتربع مثله على نفس الربوة المعجونة بالتاريخ البوهيمي والأزمنة المتعاقبة، ويطل كما المتحف على ميدان «ونسر سيلاس» النابض بالحياة .

كانت موظفة الاستقبال بمعاونة زميلها ينهيان إجراءات إقامتنا كضيوف على فندقهما بلباقة متناهية ليثبتا أن عراقة المكان لا تنسحب على العصر الرقمي الذي دخله الفندق، ولربما عقارب وقت عملهما توشك أن تلسع لتذكرهما بدفء البيت وحرقة انتظار ساكنيه .

استلمنا جوازاتنا ومفاتيحنا وتيممنا شطر مصعد «الأوتس» الأمريكي الذي غزا العالم بما فيه هذه الدولة الشيوعية السابقة .

وبينما أخطو صوب المصعد استدعيت «فكتور هوجو» مجددا أسائله ما إذا كانت هذه الكستنائية الشعر التي أنهت إجراءات إقامتنا تمتّ بصلة قربى إلى «كوزيت» في «البؤساء» وما إذا كان الشاب الرمادي العينين الواقف بجانبها خلف منضدة الاستقبال وهو يدقق في جوازات سفرنا هو حفيد «ماريوس» في الرواية الباريسية الخالدة .

تبعثرت أسئلتي في مصعد الأوتس الأمريكي وهو يرتقي بنا إلى الدور الخامس بينما تتسلل من فتحات سقفه أوبرا «دون جيوفاني» ل «موتسارت» والتي سبق وقدمها الموسيقي النمساوي هنا في براغ فأنساني مطر الموسيقى اسم الفندق والدور ورقم الغرفة ووجه سيلينا وماريوس والإبحار في فصول البؤساء .

شمس براغ لا تزال معلقة في الأدوار العليا

للبنايات القوطية المتسللة من عصر الباروك، فنزلنا نسابق الشمس قبل أن تغطس في مياه فالتافا.

تركنا المتحف الوطني خلفنا على ربوته يمارس خلوته بالأزمنة وخضنا حاضر براغ مشيا لننحدر من الربوة إلى الأسفل صوب ميدان «ونسر سيلاس»، فنأخذ جادة اليمين لنقرأ واجهات المحال والمعارض والفنادق والمطاعم والمقاهي والمكتبات.

يستوقفني كتاب ملأت غلافه صورة «هاتسلاف هافيل» فلم تسعفني اللغة التشيكية لأعرف ما إذا كان الكتاب يستعرض سيرته، أم أن الكتاب نفسه من تأليفه؟.

أعود مع اسم هاتسلاف هافيل هافيل إلى أيام جريدة عمان بحنين عقدين إلى الوراء، يومها كنت موظفا بالجريدة وهافيل الاسم المتكرر في رويترز ووكالة الأنباء الفرنسية، وصورته تتكرر يوميا كوجه مألوف للقراء وكأجمل زهور «ربيع براغ» التي ارتوت بالدماء والسجون والتعذيب لتتفتح عن أول مسرحي يخرج من الخشبة إلى سدة الرئاسة، ومن كاتب يتخيل الأدوار لشخوص مسرحياته إلى صانع لأهم أدوار التاريخ الأوروبي.

أستعيد صورة «هافيل» ومعها معاناة الجرائد وحيرة رؤساء التحرير في استحقاقات مواقع نشر أخباره التي تلاحقها الوكالات، أتكون في الصفحة الأولى كسياسي؟، أم تزحزح للصفحات الثقافية لأديب كبير توزعت رؤاه على تفاصيل عشرين مسرحية فلسفية تغنت بالحب والحياة والقيم الإنسانية؟.

كان هافيل نبيلا في مشروعه السياسي وهو يكاشف أمته بأنها انتخبته ليقول لها «إن بلادنا ليست مزدهرة كما يكذب عليكم السياسيون، ولكن الطاقة الهائلة والروحية لأمتنا لم تستغل بصورة معقولة» ولكي لا يحبط أمته عاد ليجدد التأكيد «أن السياسة ليست فن الممكن؟ بل فن تحقيق المستحيل».

لقد جاء هاتسلاف هافيل ليوحد نصف القارة الأوروبية في وجه الشيوعية حتى أسقطها في بلاده، وكان ملهما لأوروبا لأن تتقارب وتتوحد.

وجاء ومعه طهارته ونبله ومسرحياته، وعشرات الجوائز والأوسمة وشهادات الدكتوراه الفخرية، وحين رحل بكاه العالم، لأنه «الرمز لكل ما كان هنا» كما نعاه التشيكيون.

وكان ربيع براغ في أواخر ستينيات القرن الماضي ربيعا صادقا بمناخاته ودوراته الزراعية وحصاده، فأزهر أحلاما جميلة انتهت بعد عشرين عاما إلى تحول كبير.

وحين حاولت الشعوب الأخرى أن تكرر ربيع براغ لم يكن لها نفس الصدق ولا المشروع ولا الحلم ولا المناخات، فحرقت المراحل وهي تقفز على الربيع لتستعجل القطاف.

وحرصت براغ أن تقيم متحفا لربيعها الصادق حاكمت فيه الشيوعية وأساطينها، ونقدت النظرية والأيديولوجيا وأخطاء وخطايا الممارسة والتطبيق.

والزائر للمتحف الشيوعي لا بد وأن يشاهد في ختام جولته شريطا يشم فيه ربيع براغ ويتحصن به من أشواك الزهور الربيعية السامة والمخادعة.

واصلنا المشي في «ونسرسيلاس» لنتوقف عند مطعم الأمير بأطباقه اللبنانية وبطاقمه التشيكي، وعلى أنغام «طوني حنا» الذي شردت غزالته وغاب قمره عن الأحباب، تناولنا وجبة المساء وسلمنا أقدامنا لبوهيمية المكان ليقودنا الميدان إلى محلات الكريستال حيث تتأنق براغ كأجمل واجهة عرض للكريستال في أوروبا.

ندخل المتاجر فنضيع في بريقها الساطع بين كؤوس تكرر نسخا لموائد فرساي، إلى شطرنج تتغالب عليه قياصرة الكرملين، ومن أكواب بلاط السان جيمس إلى مزهريات النمساوية ماريا تيريزا مرورا بثريات الرايخ الألماني إلى روح عصر النهضة.

كانت براغ تتأنق في هذه المتاجر في بحيرات باذخة من السطوع والإبهار والشفافية والجمال وتراقص قوس قزح، والتحليق خارج حدود التصور عبر هذه المنحوتات الرائعة التي اختزلت أحد عشر قرنا من عمر براغ.

كانت الشمس توشك أن تجر شالها الذهبي من واجهات البنايات لتتوارى بعيدة في الهضاب الخضراء فسبقناها إلى جسر «تشالرز» الذي يتلألأ كل ليلة على شاشات الفضائيات قبيل نشرات الأخبار ضمن أشهر معالم العالم.

احتوانا الجسر الذي بناه الملك «كارل الرابع» بطول أكثر من نصف كيلومتر، وينساب بين أقواسه الحجرية نهر «فالتافا» القادم من دموع جبال «شومافا» التي تنهمر كل شتاء بلورات ثلج وكريستال، فتواصل تدفقها باتجاه نهر «ألبا» الألماني ليسيرا معا إلى هامبورج قبل أن يذوبا في ملح بحر الشمال.

الوقفة في الجسر تساوي ثلاثة أرباع المشوار إلى براغ فهو ينفتح على بانوراما الأزمنة والأمكنة والزهو والخيبات والقصائد والفن.

هنا يتحسس الزائر بدايات براغ المتدحرجة من القرن التاسع كمقر للملوك البوهيميين إلى زحف الرومان الذين ملأوا أوروبا مدرجات ومسارح وقصورا، إلى الأسبان الذين جاؤوا ومعهم الأندلس والشعر والقناديل وقرون الثيران و«الباييللا» إلى السويديين الذين يخرجون من عنفوان «الفايكنج» إلى بوهيمية التشيك إلى البروسيين الذين يلهمون براغ شفافية «الكهرمان» في نحت الكريستال،

تداولها الأوروبيون فاستذكرت بوهيميتها لتنتصر

إلى الفرنسيين الذين جاؤوا إلى براغ بعطر «الراين» وأناقة النابليونيين، إلى الألمان بوشائج الجوار والأنهر والتاريخ، إلى الأمريكان الذين دخلوا المشهد بغارة أمريكية قتلت المئات وبرروها بالخطأ التقني، وانتهاء بالسوفييت الذين زحفوا بالدبابات وفرضوا على الشعب الذي يحتشد كل أحد في كنائس «نيقولا» وكاتدرائية القديس «فيتوس» أن يؤمن بـ«المانيفيستو» الشيوعي ويتدارس «رأس المال» لماركس ويتخلى عن ممتلكاته لصالح الدولة، فتدفق فالتافا ليروي ربيع براغ، ويكسر كل المناجل الشيوعية ليحل مكانها الجرار الزراعي التشيكي «الزيتور» والجرار الأمريكي «جون دير» ومنتوجات «فولفو» السويدية و«إيبرو» الأسبانية لتبقى لبراغ أبديتها وأبدية البوهيميين.

غابت شمس براغ وأشعلت المراكب على صفحة «فالتافا» سرجها وهي تنساب حالمة بين جبال «موشافا» وأطراف البلدة، وتحول المكان إلى منحوتة سوداء من الكريستال انعكست عليها أعمدة إنارة الشوارع وكشافات النهر وأضواء السيارات والمراكب العائمة والواجهات المضاءة في المباني التاريخية على الضفتين لتبدو المنحوتة قيامة من الأنوار، فأغمضت عيني وأنا أردد قصيدة التشيكي ميروسلاف هولوب «أقول ما أريد أن أقول من أجل أبدية الغابة».

نصحو مع ضوء جديد لشمس المكان فتقترح علينا كستنائية الشعر في فندق «الداون تاون» جولة بالحافلة بين معالم براغ.

وبعد نصف ساعة كنا في الحافلة بين سياح أمريكان وأوروبيين وآسيويين فانطلقت بنا من عتبة الفندق وسلكت نفس الشارع الذي مشيناه بالأمس، مرورا بجسر تشارلز، لترقى بنا إلى الضفة الثانية للنهر، ثم نواصل الصعود لنصف ساعة بين قصور وقلاع وجدران صدئة نقش عليها الزمن مرثياته، وبعضها تشقق بعاديات الزمن ليصدق عليه قول الشاعر التشيكي فلاديمير هولان «أن هناك أفاعي بين شقوقه تراقب جدارا آخر».

كان المرشد ثرثارا أكثر من اللازم، وبعض رفقاء الحافلة يتابعونه بانتباه يحسدون عليه، وبعضنا تلهى ب «واي فاي» الحافلة ليخرج من ربيع براغ إلى ربيعنا العربي المأزوم.

توقفنا عند قلعة براغ الشامخة في عنفوان أكثر من ألف عام، والتي تعد الأكبر على مستوى أوروبا فدخلناها لنقلب الدهور ونشم عبق المرجان في الحيطان ونستعظم الأوائل الذين كثفوا إبداعهم وراكموه لتمتد مرافق القلعة إلى (٤٣٠٠) متر مربع لتكون مقرا لحكم ملوك بوهيميا ومن جاء بعدهم وحتى الحقبة الشيوعية.

ثم خرجنا لندخل كنيسة القديس «فيتوس» التي تجمع بين أنماط مختلفة من المعمار كما يشرح لنا المرشد، ثم تجولنا في المدينة الحجرية ومحال بيع التذكارات واللوحات لنستقل الحافلة وننزل إلى ضفة النهر ولندخل الحي اليهودي «يوزيفوف» فتخترق الحافلة قصورا باذخة ثم نفترب من مقبرة اليهود فحارة الماركات وهي الأكبر أوروبيا، فنخرج من الحارة المثقلة بوطأة المال وأشهر الماركات العالمية لنطلب من السائق أن يتوقف لندخل الساحة التاريخية لبراغ التي تشتهر بمبنى البلدية وساعته الفلكية كثالث أقدم ساعة في العالم والتي لا تزال تعمل إلى الآن.

وقفنا مع الواقفين وكلما دقت أجراسها ركضوا إليها وركضنا مع تراكض مرتادي الساحة ليشاهدوا حركتها والدمى التي تخرجها، ويتابعوا التنوع الذي تبديه والرمز الذي تمثله، فهي ساعة الوقت والفصول والأبراج والكواكب والشموس والأقمار والحياة والموت.

وفي تلك الساحة الأثيرة تصطخب براغ بالشباب الذين يتنفسون الأزمنة وهم يتزاحمون على مقاعد المطاعم والمقاهي والشرفات المفتوحة على نهارات وليالي المكان.

تفحصنا قوائم الأطعمة فلم نجد ضالتنا فكانت الأطباق بوهيمية الأسماء والنكهات والأذواق والروائح، فحملتنا «الريكشا» إلى «جريل تكا» الهندي لنؤدي صلاة الظهرين على الفرش البيضاء النظيفة التي يستغلها لطاولات الأكل ونستمتع «بواي فاي» المطعم قبل أن يتقدم النادل بأوانيه النحاسية اللامعة وهي تفور تحت نار «الصريدان» الصغير لنغرق في بحر من الفلفل والمصلا والبرياني والكاري ولذة تثأر لجوع المشي بين الأزمنة ومعالم البلدة وكأننا لم نأكل منذ أن بدأ العمل بجسر تشارلز ودوران ساعة البلدية.

وفي الأصيل احتوانا نهر الكريستال من جديد لننتقي ما يناسب إمكاناتنا ثم ندخل، منطقة المقاهي حيث ينتهي «ونسر سيلاس» لنشرب القهوة وسط روائح قوالب الخبز والحلويات التي تحضر على أسياخ كالشاورما.

بينما يصطخب المكان بالعروض والموسيقى والحركات الاكروباتية ارتدت براغ فستان السواريه الأسود وتأبطت حقيبتها المطرزة بالكريستال لتزيد الفستان أناقة مسائية وكانت السماء سوداء، والتشيكي «فلاديمير هولان» يناجي المساء: «الميـاه المعـتمة ترسم إحساس البجع».

عدنا ليلا إلى الفندق لننام ونتحضر لطريق العودة بعد زيارة خاطفة لبوهيمية التشيك وسهوب ربيع براغ الملهم.

وكان لا بد لنا كما يقول الطليعي التشيكي يارسولاف سيفرت: «من أن نمد أيادينا إلى هذه الأكمام الفارغة المليئة بعرفان الجميل لنهزها بحنان ونقول لها وداعا».

وقد مددنا بالفعل أيادينا إلى أكمام قمصاننا فهززناها بحنان وودعنا المكان، لتعود بنا الفولكس واجن مجددا إلى هامبورج، ومعنا الكريستال والنقاء الثوري لهاستلاف هافيل الذي مات وهو على حقده على الشيوعية وموسكو لدرجة تأييده لبوش لغزو العراق ظنا منه أن صدام رجل موسكو، ولكن موسكو لا رجال لها يا هاتسلاف هافيل.